مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

الأدب العربي في الأندلس يثير عدّة قضايا لها علاقة بماضي هذه الأمة وحركتها الثقافية وإنتاجها الحضاري، والماضي يمكن أن يكون عاملاً على فهم واقعنا ورسم مستقبلنا إن أحسنّا معه التعامل.

هذا الأدب يمثّل حركة الجانب الشعوري من الثقافة الإسلامية في ذلك الصقع، وهذه الحركة كانت جزءاً من حركة ثقافية عامة أدّت إلى إنتاج حضاري باهر. ويلفت النظر في أدب الأندلس مشاركةُ الأطباء والصيادلة والفلكيين والفقهاء والمفسرين والفلاسفة والعرفاء في هذا الإنتاج الأدبي، ممّا يؤكد الرابطة الوثيقة بين الأدب والحركة الحضارية.

المهمّ في الأمر أنّ هذه الحركة شقّت طريقها وسط أوضاع كانت غالبًا بين تصدّع داخلي وتهديد خارجي، لكنّ الإنسان الأندلسي ـ رغم كل ماكان يعانيه من مرارة تلك الأوضاع ـ لم تنزل فيه هزيمة نفسية، ولم يشعر بالدونيّة أمام عدوّه، بل كانت الرسالة الاسلاميّة تضخّ فيه روح العزّة والكرامة وطلب العلم والتعاون على البرّ والتقوى... وبهذا الشعور وبهذه الروح خلق تراثًا أدبيًا وفنيًا وعلميًا فاخرًا على ساحة التاريخ.

من هنا فإن التهديد الأكبر الذي يواجه العالم الإسلامي اليوم والتحدي الأصعب أمام مسيرته الحضارية ليس هو التصدع الداخلي والتهديد الخارجي فحسب، بل هو بالدرجة الأولى تراجع الأمة شعوريًا، وإحساسها بالهزيمة نفسيًا، وهذه الحالة بدورها وليدة انعزال الأمة عن الإسلام بمعناه الرسالي الحضاري.

الظاهرة الهامة الأخرى التي تبرز لدى دراستنا الأدب الأندلسي هي ماكان بين هذه

الأمّة من وحدة ضمن الدائرة الحضارية الإسلامية.

نرى بين الأندلس في أقصى الغرب وإيران في أقصى الشرق علاقات هي غاية ما يتمنّاه الإنسان اليوم في القرية الكونية، فالتواصلُ الأدبي والثقافي والعلمي كان قائمًا بينهما بصورة مذهلة. أقول مذهلة مقارنة بالواقع المرير الذي تعيشه أمتنا اليوم، رغم سرعة المواصلات وثورة الاتصالات وتقنية نقل المعلومات. الحضور الإيراني في الأندلس سبقه حضور إيراني في المغرب، ثم بدأ في الأندلس بمشاركة فاتحين إيرانيين، ثم بمشاركة أدبية وثقافية وعلميّة عبر شخصيات من أصل إيراني مثل ابن حزم والرازي وعبر مؤلفات سيبويه وابن سينا وبديع الزمان الهمداني، وعن طريق مراودات علمية بين الأندلس ومدن إيران حتى أقصى خراسان. وزرياب الذي دخل الأندلس لم يكن صاحب مدرسة فنية فحسب، بل كان مبعث حركة ثقافية شاملة. ثم إن لغة الأدب الأندلسي في الحبّ والعرفان والحكمة والقصص الفلسفي والقصص الخيالي تتشابه إلى حدّ كبير مع ما كان عليه الأدباء الإيرانيون في مشرق العالم الإسلامي.

هذه الوحدة الحضارية في العالم الإسلامي كانت قائمة منذ أكثر من ألف سنة. وهي ـ على الرغم من تراجعها بعد عصر انحطاط المسلمين ـ ذات جذور ضاربة في أعماق أمتنا. ومقوّمات عودتها إلى الحياة ليست بأقل من مقوّمات قيام الاتحاد الأوربي، لكن الذي ينقصها هو ضعف إرادة المسلمين.

أدب الأندلس في دائرة أوسع يفتح أمامنا آفاق وحدة الحضارة الإنسانية. فالله سبحانه وتعالى خلق التعددية في العالم للتعارف، والتعارف هو التبادل المعرفي بين الشعوب والقبائل. والإنسان للإنسان إما أخ له في الدين أو نظير له في الخلق، كما يقول أمير المؤمنين علي(ع). والتشابه في الخلق لا يعني تشابه الجسم، إذ هو من البديهيات، لكنه تشابه الفطرة، الذي يجعل الناس مشتركين في كل الآلام والآمال والتطلّعات والمشاعر، و إنّما الذي يفرّق بينهم هو انقطاع «التعارف».

في الأندلس توفّرت فرصة هذا التعارف بين الإسلام والغرب، وحدث ذلك إلى حدٍّ ما، بشهادة كل الباحثين في التراث الحضاري المشترك بين الأندلس والغرب.

كان بالإمكان أن يحدث تفاعل بين الحضارتين كالذي حدث بعد فتح إيران، وإقامة الحضارة الإسلامية المشتركة بين الإيرانيين والعرب في الكوفة والبصرة وبغداد ونيشابور

وإصفهان وخراسان و... لكن ذلك لم يحدث في الأندلس بسبب القيادات المتعصبة الجاهلة الأنانية الفاسدة التي سيطرت في أغلب مقاطع تاريخ الأندلس، وبسبب التعصّب القومي الأوربي الذي اتخذ من المسيحية غطاءاً لنزعته العنصرية، وما تبعه من محاكم التفتيش ونقض العهود والاستئصال العرقي والإكراه في الدين تجاه المسلمين في إسبانيا.

لقد فوّتت هذه الظروف التعسة أعظمَ فرصة لنهضةٍ حضارية زاهرة أوشكت أن تعمّ بنورها أوربا والقارة الأمريكية قبل اكتشاف كريستوف كولومبس،وأن تقوم حضارة عالمية إنسانية تحول دون هذه الآلام التي عانتها البشرية خلال قرون.

إن الفرصة لاتزال اليوم متوفّرة، إذا أحسن العالم الإسلامي تقديم حضارته، وزال التعصّب القومي والشعور الاستعلائي لدى الأوربيين، بل إن فرص اللقاء الحضاري ازدادت بسبب ثورة الاتصالات. وتستطيع إسبانيا أن تنهض بدور رائد في هذا المجال، استنادًا إلى موروثها الحضاري، وقربها من العالم الإسلامي. ولقد تحركتْ أخيراً في هذا المجال عبر نشاطات ثقافية تنهض بها معاهد ثربانتس في العالم العربي والإسلامي.

الأدب الأندلسي إذن هو بالنسبة للإيراني جزء من أدب دائرته الحضارية الإسلامية، وجزء من دائرة حضارته الإنسانية، بل إنه من دوائر الالتقاء الإيراني العربي في مجال الآداب والعلوم والفنون.

لعلّ هذه الأفكار هي التي دفعتني إلى الكتابة عن الأدب الأندلسي بعد تأليف الأدب العربي في العصر العباسي، راجيًا أن يكون لطلاب اللغة العربية وآدابها في الجامعات الإيرانية عونًا لهم للدراسة والبحث والتوسّع.

حاولت أن يكون الكتاب متناسبًا مع المنهج الدراسي، ومع مستوى طلاب اللغة العربية غير الناطقين بها، غير أني أضفت عناوين للدراسة والبحث في الموضوعات الأدبية المختلفة، لمن أراد التوسّع.

وفي النصوص اخترت ما رأيته مناسبًا، ووضّحت ما رأيته ضروريًا، تاركًا بقية العمل للطالب.

وانصبّ اهتمامي على تقديم المادّة التي تكشف عن إبداع هذه الأمة وتواصلها الحضاري، وقدرتها على تقديم الخطاب الإنساني العالمي.

الشكر لمؤسسة تدوين الكتب الجامعية في حقل العلوم الإنسانية (سمت) التي

شجعتني على انجاز هذا المشروع. والشكر موصول للدكتورة بتول مشكينفام وطالباتها في جامعة الزهراء على اهتمامهنّ بقراءة مسوّدات الكتاب وعلى ماقدّمن من اقتراحات وجيهة، والشكر موصول للدكتور محمد دزفولي على تفضّله بمطالعة الكتاب و تصحيح نصوصه، و للأستاذ أسدالله معظمي گودرزي على اهتمامه بمراجعة الكتاب و إبدائه ملاحظات قيمة. ثم الشكر سلفًا لكل من ينبّهني على الهفوات والنواقص. سائلاً الله سبحانه أن يمنّ على أمتنا باستعادة عزتها وكرامتها واستئناف حركتها الحضارية على مستوى العصر. والله ولي التوفيق.

أ.د. محمد علي آذرشب
جامعة طهران ربيع الأول ١٤٢٩ه